**سادسا. المدرسة التوزيعية السلوكية(بلومفيلد)**

**تمهيد**

تأثر أتباع المدرسة الأمريكية بالمذهب السلوكي في علم النفس، وعدّوا اللغة مجموعة من العادات السلوكية، فقد اعتبر بلومفيلد اللغة سلوك لغوي يشبه باقي السلوكات الأخرى، على خلاف سابير الذي نظر إليها من الناحية الاجتماعية[[1]](#endnote-1)1. ويرى أتباع هذه المدرسة أن الطريقة التي يتحدث بها الناس هي مرجعهم الوحيد في الحكم على اللغة دون النظر إلى جانبها النحوي، فركزوا على تعلم لغة النطق أولا ثم لغة الكتابة بعدها. هذه المدرسة لم تدرس المعنى، لكنها لم تنكر أهميته في الدرس اللغوي، يقول بلومفيلد: «لا يمكن في اللغة فصل الأشكال عن معانيها، ومن غيرالمُجدي دراسة أصوات اللغة فقط دون إعطاء أي اعتبار للمعنى، ولكن يجب أن نبدأ من الأشكال لا المعنى»[[2]](#endnote-2)2. كان بلومفيلد صارما في دراسته للغة التي طُبِعت بطابع علمي تجريبي[[3]](#endnote-3)3.

**1. نمط توزيع الوحدات اللغوية**

* 1. **مفهوم التوزيع**

إذا أردنا أن نقدم تعريفا لمفهوم التوزيع في الدراسة اللسانية، «فالتوجه التوزيعي في اللسانيات يُعدّ ردّ فعل على الدراسة اللسانية التقليدية التي ركزت في تحليلها ودراستها على مبدإ الخطإ والصواب في التقعيد المعياري للغات وتوخّي التوزيع بجعله ينفرد بالرؤية الوصفية الظاهرية للكلام أو للأشكال اللغوية ليحقق مُعاينة السياق الكلامي، وضبط تتابع التأليف اللغوي في هذا السياق بحسب المواقع التي تكون فيها وتظهر بها. فالتوزيع هو الموقع الذي يحتله العنصر اللساني ضمن العناصر اللغوية الأخرى المنتظمة مع بعضها، لذا يتحدد توزيع عنصر(أ) بمجموع العناصر التي تحيط به، ومحيط عنصر يتكون من ترتيب العناصر الأخرى التي ترد معه، يتوافق كل منها في موقع معين مع العناصر في تركيب كلامي. والعناصر التي مع العنصر(أ) في موقع معين تدعى انتقاء هذا العنصر بهذا الموقع»[[4]](#endnote-4)4. فالمتكلم يكون لديه الخيار في ترتيب الكلمات التي اختارها للتعبير عن فكرة معينة، والتوزيع يعمل على كشف آلية لغة من اللغات في تحديد فئات من الكلام تتميز بتآلف عناصرها، كما أن كل كلمة يتعين موقعها بالنظر إلى الكلمات التي تجاورها في السياق، ومن ثمة فتعريف أقسام الكلام تعريفا موقعيا يكون باعتبار كل العناصر التي تشغل الموضع نفسه في السياق، تنتمي إلى القسم نفسه من أقسام الكلام[[5]](#endnote-5)5.

* 1. **إبعاد المعنى**

الأشكال اللغوية جعل منها بلومفيلد موضوعا للوصف التوزيعي، في علامات لغوية يُعرِّفها بأنها أشكال صوتية ذات معان رغم أنه لا يهتم بجانب المعنى، ذلك لأن الدراسة الوصفية العلمية الدقيقة التي يؤمن بها ويطبقها أتباع هذه المدرسة لا يمكن تطبيقها على المعنى باعتباره أمرا باطنيا، بينما هم يهتمون بكل ماهو قابل للقياس والملاحظة ، فاستبعدوا علم الدلالة من الوصف اللغوي، وعملوا على تحييد الدلالة خدمة للنزعة الشكلية الناتجة عن التأثر بنظريات علم النفس السلوكي، فمن وجهة نظرها أنه يمكن ضبط السياقات المختلفة التي يظهر فيها اللغوي وتقييد توزيعه ضمن السلسلة الكلامية [[6]](#endnote-6)6.

* 1. **التحليل إلى مكونات مباشرة**

للتوزيعية إجراءات وطرق معينة في التحليل، حيث تحلل الجملة بتفكيك بنيتها إلى مكونات وطبقات بعضها أكبر من بعض نزولا عند عناصرها الأولى والتي تسمى(مورفيمات)، أو ما يسمى المونيمات في المدرسة الفرنسية، الدالة على وحدة صرفية تحمل معنى معينا[[7]](#endnote-7)7. والمورفيم لدى التوزيعيين الأمريكيين له معنى خاص يختلف عنه عند الأوروبيين فهو«يدل على الوحدة النحوية مقابل الوحدة المعجمية عند مارتيني، يعبرون عنه بمصطلح(اللفظم Monème)، ومصطلح مؤلف(constituant) يطلق عند التوزيعيين على كل مورفيم أو ركن كلامي يمكن أن يدرج في بناء أكبر، وتنقسم المؤلفات المباشرة إلى قسمين:

1. المؤلفات المباشرة(les constituants immédiats): وهي مكونات الجملة القابلة لأن تحلل إلى مؤلفات أصغر، يفكك فيها التوزيعيون بنية الجملة إلى طبقات بعضها فوق بعض إلى الحد الذي يصل فيه التحليل إلى عناصرها الأولية( مورفيمات)[[8]](#endnote-8)\*، التي يعدونها وحدات دنيا أخيرة في تحليل ذو دلالة.
2. المؤلفات النهائية(les constituants terminaux): وهي المؤلفات غير القابلة للتحليل إلى مؤلفات أصغر»[[9]](#endnote-9)8.

وهذا النمط من التحليل أمسى سائدا في كل منوال يسعى إلى وصف البنى التركيبية للغات، وكان هذا التحليل وسيلة تطغى على ما سواها في تحليل بنية الجملة إلى العناصر التي تتألف منها، ومعرفة أي جزء من أجزاء الكلام يتبع كل عنصر وذلك بموجب سلوكه اللغوي في الجملة، وكذا تتبع علاقة الكلمات ببعضها. وحينما نقدم مثالا على هذا التحليل نقول:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا

حيث تتكون هذه الجملة من مؤلفين مباشرين: أتاك الربيع الطلق / يختال ضاحكا 1 2

ويمكن تحليل المؤلف 1 أيضا إلى: أتاك/ الربيع/ الطلق 3 4 5

وتحليل المؤلف3 إلى: أتى/ ك 6 7

والمؤلف 4 إلى: ال/ ربيع 8 9

والمؤلف 5 إلى: ال/ طلق 10 11

والمؤلف 2 يتحلل إلى: يختال/ ضاحكا 12 13

ويمكن تحليل هذا النموذج حسب مايلي:

1. المؤلفات 1 و 2 و3 و4 و5 هي مؤلفات مباشرة، أي قابلة للتحليل إلى مؤلفات أصغر.
2. أما المؤلفات 6 و7 و8 و9 و10 و11 و12 و13مؤلفات نهائية أي غير قابلة للتحليل إلى مؤلفات أصغر منها ذات دلالة، فيمكن أن تدرج ضمن بناء أكبر.

فالتمثيل التوزيعي للجملة حسب صندوق هوكات تمثيل تصاعدي، يبدأ من من حيث ينتهي التحليل إلى مؤلفات، أي ابتداء من العناصر الأولية التي لا تقبل التحليل إلى مؤلفات أصغر، فالجملة وحدة لسانية قابلة للتحليل إلى شطرين أساسيين؛ ركن فعلي، وركن فعلي آخر يؤول اسما(حال) تابعا للركن قبله. فبهذه الطريقة يمكن للباحث في مجال اللسانيات ضبط الأشكال اللسانية في أي لغة من اللغات وتصنيفها، لأن النحو حسب هذه المدرسة هو علم تصنيفي غايته ضبط الصيغ الأساسية في اللغة حسب درجة التواتر.

**2. منهج الدراسة**

يُعرف منهج هذه المدرسة بالمنهج التوزيعي، أوالهيكلي، أوالشكلي، أوالسلوكي، انطلق أصحابه من مفهوم البنية عند ديسوسير، تعاملوا معه بدقة ووضعوه منهجهم الموضوعي، والذي ساد في النصف الأول من القرن العشرين من (1920- 1950م) في أمريكا[[10]](#endnote-10)9. طوروا منهجهم الوصفي إلى منهج تصنيفي يعتمد على التوزيع، ويمكن إجمال الخطوات المتبعة في الدراسة على النحو الآتي:

1. «مرحلة تكوين المدونة أو نص موضوع الدراسة من الأشكال المسموعة التي يسجلها الباحث لمجموعة من الناس المتعلمين بلغة واحدة(المخبِرون) في آلات التسجيل، وقد يكون الباحث دارسا ومُخبِرا في الوقت نفسه.
2. القيام بالدراسة الصوتية الفونولوجية: حيث يكتب المسموع كتابة صوتية يراعي فيها التنغيم والنبر والقطع، والهدف هو البحث عن الفوارق الصوتية المترابطة لتكوين ثبت الوحدات الصوتية الوظائفية الدنيا(الفونيم)، وإدراجها في نظام صوتي يعكس ويمثل حقيقة اللغة، وهي عُمدة البحث عندهم.
3. تُدرس الوحدات الصرفية أو الصيغ Morphème، وتُصنَّف وتُبوَّب ليصل الباحث في الختام إلى معرفة النظام العام الذي تخضع له اللغة.
4. يقسمون المدونة في الدراسة التركيبية إلى جمل لدراسة أشكالها، ويحللون عناصرها التي تكونها ليعرفوا كل جزء من أجزاء الكلام، ومحصِّلة هذه الدراسة في هذا المستوى هي التي تكوِّن النحو(نحو اللغة المدروسة)»[[11]](#endnote-11)10.

ويصر أصحاب هذه المدرسة على احترام الترتيب في تطبيق هذه الخطوات، حتى لا يُرفض البحث.

1. استفاد بلومفيلد من خصائص المنهج المادي في علم النفس السلوكي الذي طوره واتسون، والذي هدف إلى إخضاع السلوك الإنساني للدرس العلمي التجريبي، معارضا بذلك بعض علماء عصره الذين قالوا بفكرة الروح والشعور، باعتبارها متعلقة بالجانب الباطني للإنسان غير قابلة للملاحظة المباشرة، ولا فائدة علمية تُرتجى منها، في حين ملاحظة سلوك الأعضاء فيما تفعله أو تقوله يمكن البحث فيه، وهو ما فعله بلومفيلد متأثرا بواتسون.
2. تناول بلومفيلد الدرس اللغوي دراسة علمية منهجية كما سبقت الإشارة إلى ذلك، واعتبر المعنى هو الاستجابة التي يستدعيها موقف الكلام عند السامع، والأحداث العملية التي تسبق الكلام وتتلوه أحداث تدخل في دراسة المعنى، لأنها من عناصر موقف الكلام، ولها سمة الوجود الخارجي، ومن ثمة يرى بلومفيلد أننا لا ندرس اللغة في ذاتها، وإنما دراسة أصوات الكلام من غير اعتبار المعاني التي تحملها هو دراسة تجريبية، ومعرفة أوجه التطابق والتباين بين الأشكال اللغوية لابد أن تُبنى على اعتبار الدلالة أوالمعنى، فهو الذي يساعد على دراسة الأشكال اللغوية. وبنظره امتلاك معرفة صحيحة علميا عن محيط المتكلِّم مرهون بتطوير المعرفة الإنسانية، حيث تبقى دراسة المعنى محل سؤال مطروح يبحث عن دراسة علمية دقيقة. وخلاصة القول المنهج التوزيعي بنيوي وصفي يدرس الظواهر ويؤجل الأشياء التي يتعذر مشاهدتها ودراستها بموضوعية، فيتركها لتطورالمعرفة العلمية[[12]](#endnote-12)11.
3. يحلل بلومفيلد اللغة إلى مستويات ثلاث هي:

* المستوى الفونيمي: ويحتوي على الوحدات الصوتية.
* المستوى المورفيمي: ويحتوي الوحدات المعجمية؛ مثل الكلمة، الصيغة، السابقة، اللاحقة، الداخلة، الساق، الجذر.
* المستوى التركيبي: ويحتوي على تراكيب أكبر من الكلمة، من مثل شبه الجملة.

وفي عملية التحليل يقوم بالتقطيع الذي يهدف إلى تحديد المكونات لا الوظيفية فيستعمل الخطوط الرأسية(العمودية)، والأقواس، والتحليل المشجّر. هذا التقسيم لا يعتمد على الوظيفة النحوية التي اتبعتها الطريقة التقليدية، بل يركز على قانون التوزيع، وإمكان إحلال عناصر مكان أخرى تعد امتدادا لها[[13]](#endnote-13)12. وهذا المثال يوضح هذا النمط من التوزيع:

* + - 1. الشيخ يروي تجارب حياته ينظر مبتسما
  1. الجد ينظر مبتسما
  2. والد الأب ينظر مبتسما

حَلَّ (1.1) و(1.2) محل الجزء الأول من الجملة(1)، بينما حل محل الجزء الثاني من الجملة(1.3)،(1.4) كما يلي:

(1.1)الجد (1.3)فرح

(1.2)والد الأب (1.4)بشوش

فالهدف بحث المكونات المناسبة في التركيب لا الوظيفة.

ق. فالشيخ الذي يروي تجارب حياته هو(الجد) وهو(والد الأب)

ن. ينظر مبتسما تطابق( فرح)و(بشوش).

ومكونات (ق) تعادل مكونات(ن).

فالجملة طبقات متراكمة بعضها فوق بعض، في سلسلة متتابعة العناصر، ويمكن استعمال ثلاث وسائل لتقطيعها:

* **الخطوط الرأسية**: للفصل بين القسمين الأساسيين في الجزء الأول كقولنا:

أحمد طيبيحبه الناس

وخطين بين القسمين الأساسيين في الجزء الثاني :

أحمد طيبيحبـ ـه الناس

* **استعمال الأقواس** كما يلي:

(((أحمد)) ((رجل)) ((مسالم)) ((في مجتمعه))) : استشفها بلومفيلد من الجبر.

* **استعمال التحليل المشجر**: طريقة تعكس العلاقة بين مكونات الجملة مثل قولنا:

الجملة

استوعبنا محاضرة اليوم

استوعب نا ال يوم

**المخطط -1-**

وتوجد تقنيات عملية خاصة لدراسة أو تحليل اللغة كما سبقت الإشارة إليه سابقا بما سمي صندوق هوكات Hockett يمثله المخطط-2-:

|  |  |  |  |  |  |  |  |  |
| --- | --- | --- | --- | --- | --- | --- | --- | --- |
| تجاذب | نا | | أطراف | | | الـ | | حديث |
| تجاذب | | نا | | أطراف | | | الحديث | |
| تجـــــاذبـنــــــــــــا | | | | | أطـراف الحـديـــث | | | |
| تجاذبنــــــــأ أطراف الحــديــــــــث | | | | | | | | |

**المخطط -2-**

يظهر التوزيع فيه تصاعديا ينتهي فيه التحليل إلى العناصر الأولية التي لا تقبل تقسيما أصغر، ونهاية التحليل حسب صندوق هوكات التوزيعي هو الجملة التي تمثل الوحدة اللسانية القابلة للتحليل[[14]](#endnote-14)13.

وحسب هاريس Hariss أحد الباحثين في اللسانيات البنيوية الأمريكية وهو من جيل بلومفيلد المتأخرين، فإن التحليل التوزيعي يعاني من بعض النقائص، ومن ثمة فقد لجأ إلى فكرة التحويل في اللغة منذ عام 1952 فأصبح التوزيع عنده يقصد به:

* «مجموع السياقات التي يأتي فيها مكون لغوي معين.
* النظر في مدى تأثير هذه السياقات على المكون اللغوي سواء كان وحدة صوتية (فونيم) أم وحدة صرفية(مورفيم).
* اعتمد على المعنى وعلى مقياس التوزيع لتحديد البنى الصوتية الفونولوجية والنحوية التركيبية.
* طور في إطار(فكرة التحويل) مفهومي: الجملة النواة(الأصل) والتركيب المحوَّل، وهما المفهومان اللذان انطلق منهما تشومسكي في نظريته التوليدية التحويلية.
* رأى أن تمييز الأصوات أو تحديد الفونيمات يمر عبر التمييز بين معاني الوحدات الصرفية أي الكلمات، فلكي نميز بين(الدال والطاء والنون) لابد من النظر في المباني الصرفية(دال- طال-نال)، وما تؤديه الأصوات أو الفونيمات السالفة من تغيير في الدلالة أو في المعنى، وبهذا يكشف عن أن التمييز بين الأصوات أسهل وأكثر دقة علمية من التحدث عنها.
* لاحظ هاريس تشابها بين اللغات على مستوى الجمل المحولة، ومن ثمة تبعه تشومسكي الذي برز في البحث اللساني انطلاقا من الخلفية التي حددها هاريس»[[15]](#endnote-15)14.

1. 1 ينظر: السعيد شنوقة، مدخل إلى المدارس اللسانية، ص 85. [↑](#endnote-ref-1)
2. 2 بلومفيلد، اللغة، ص 103، نقلا عن: كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، وكالة الأهرام للتوزيع القاهرة، ط1 1998، ص64. [↑](#endnote-ref-2)
3. 3 ينظر: السعيد شنوفة، مدخل إلى المدارس اللسانية، ص ص86، 87. [↑](#endnote-ref-3)
4. 4 السعيد شنوفة، مدخل إلى المدارس اللسانية، ص95. [↑](#endnote-ref-4)
5. 5 ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها. [↑](#endnote-ref-5)
6. 6 ينظر: المرجع نفسه، ص 96. [↑](#endnote-ref-6)
7. 7 ينظر: المرجع نفسه، ص97. [↑](#endnote-ref-7)
8. \* **المورفيم:** عند التوزيعيين وحدة مميزة صغرى في التحليل القواعدي له أهمية مركزية في الصرف، وهو مفهوم علمي بديل لمفهوم الكلمة أو الصيغة. ينظر: روينز، موجز تاريخ علم اللغة، ترجمة د أحمد عوض، علم المعرفة، العدد 227، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1997، ص 8. وهو لفظ ترتيبي لدى التوزيعيين يشمل كل الوحدات التي تدل على معنى نحوي، بينما في المدرسة الأوروبية يدل على الوحدات النحوية مقابلة بالوحدات المعجمية، وهو ما أراده مارتيني من نظريته في الفونولوجيا حينما عمد على إزالة الفصل بين الصوتيات la phonétique والصوتيات الوظيفية phonologie، الذي سَنّته مدرسة براغ، فقد اعتبر مارتيني الفونولوجيا ضربا من الفونيتيكونظر للصوتيات الوظيفية الزمانية في نظريته في إطار المدرسة الوظيفية لأجل تفسير تطور اللغة. والمورفيم عنصر صرفي يربط بين الأفكار التي يتكون منها المعنى العام للجملة. ينظر: السعيد شنوفة، مدخل إلى المدارس اللسانية، ص 98. [↑](#endnote-ref-8)
9. 8 السعيد شنوفة، مدخل إلى المدارس اللسانية، ص97. [↑](#endnote-ref-9)
10. 9 ينظر: المرجع نفسه، ص ص 87، 88. [↑](#endnote-ref-10)
11. 10 المرجع نفسه، ص 103. [↑](#endnote-ref-11)
12. 11 ينظر: المرجع نفسه، ص ص 104، 105. [↑](#endnote-ref-12)
13. 12 ينظر: المرجع نفسه، ص 105، 106. [↑](#endnote-ref-13)
14. 13 ينظر: المرجع نفسه، ص ص 107، 108. [↑](#endnote-ref-14)
15. 14 المرجع نفسه، ص ص 109، 110. [↑](#endnote-ref-15)